

الشمال الكبير، الفضاء الجيوإستراتيجي الجديد

بقلم تييري غارسان
ترجمة عياش سلمان

أصبح القطب الشمالي في الوقت الحاضر مرهونا بمدى ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية: ومنها تغيرات الجليد الساحلي وموارد الصيد والطرق البحرية الروسية والكندية. وتعتبر الأماكن الشاسعة من حقول البترول والغاز (بحر بارنتس)، وتصدير المواد الأولية عن طريق البر والبحر، وتطوير سفن نقل غاز الميثان، ومخاطر التلوث النووي (شبه جزيرة كولا الروسية)، والرهانات على السيادة ومناطق النفوذ، بالإضافة إلى أهمية المنطقة بالنسبة للدفاع الصاروخي الأمريكي، جميعها ملفات أساسية فيما يتعلق بهذه المجموعة الجيوإستراتيجية المتطورة باستمرار.

وتزايدت أسباب الاهتمام بالمحيط المتجمد الشمالي يوما بعد يوم. وفي هذا الصدد، كان من حسن المصادفات أن أُعلن عام 2007-2008 السنة القطبية الدولية (من المقرر أن تشارك فيها قرابة 70 دولة).

ويمكن القول، بادئ ذي بدء، أن ارتفاع درجة حرارة الأرض أضحي حقيقة لا جدال فيها؛ إذ أن التغيرات المناخية جارية فعلا. وما تزال قنة الأرض الجليدية ماضية في الذوبان منذ السبعينيات: والأقمار الصناعية تتنافس في تقديم الخرائط الملتقطة من الفضاء وكذلك الكشوف التي تعدها الغواصات النووية الأمريكية والسوفييتية، زيادة على ما يقدمه ربابنة كاسحات الجليد وبواخر الاستكشافات القطبية من معلومات. ومن شأن ذلك أن يؤثر بالغ التأثير على المدى البعيد في جملة من الأنشطة البشرية وفي السكان وعالم الحيوان والنبات.

إن مستوى البحر في ارتفاع مستمر: ولو فرضا في المجرى، أن جليد جزيرة غروينلندا ذاب عن آخره فإن مستوى الارتفاع سيبلغ سبعة أمتار. وستتغير بذلك درجة ملوحة المياه: وإذا كان الجليد الساحلي مالحا فإن جبال الجليد العائمة تتألف من مياه عذبة لكونها ناتجة عن مجلدات الثلج المتجمد. وستتغير التيارات الهوائية: وبذلك ستوغل المياه الباردة المترتبة عن ذوبان جليد القطب بفعل تيار الخليج المعتدل. ولقد تضررت الموارد الصيدية والصيد البحري: وأصبحت الأسماك بعدما تعودت على درجة حرارة ملائمة ميالة أكثر إلى الهجرة وما زلنا نذكر أن سمك المورره كان يعد من أكبر الموارد الصيدية في النرويج (حيث يمثل الصيد البحري المورد الثاني من الصادرات)¹. ولقد أصبح تاكل جبال الجليد وانجرافها أمرا واضحا وجليا: فإذا كان المحيط المتجمد الجنوبي قارة حقيقية (ومساحته 14 مليون كيلومتر مربع أي ما يماثل مساحة البرازيل 1,7 مرة) وتبلغ أعلى قمة به ارتفاع 5.140 متر وما يزال بعيدا عن متناول البشر (فهو يبعد عن مدينة الكاب بمسافة 3.600 كيلومتر) فإن المحيط المتجمد الشمالي هو في واقع الأمر محيط يتألف من عدد لا يحصى من المجلدات، وفيه جزر مأهولة بالسكان وقريبة من مراكز التجمع البشرية الكبرى (كندا، البلدان الإسكندنافية، فنلندا، روسيا...). ولقد أصبح استغلال الموارد الطبيعية في البحر (البترول والغاز) استغلالا معتبرا: على يد الأمريكيين عبر

الممر إلى منطقة آلاسكا، والنرويجيين والروس عبر بحر بارنتس. وهكذا بدأت الأنظمة البيئية في التغيير؛ فيما يخص السكان الأصليين والمستوطنات من الأحياء والاقتصاد والنقل والسياحة.

وباختصار، صارت درجة الحرارة في القطب الشمالي ترتفع بسرعة تفوق ارتفاعها في المناطق الأخرى من العالم، ويوجد بحر بارنتس من المناطق الأكثر تضررا بشكل خاص. وبعيدا عن الإفراط في البلاغة الإيكولوجية فإنه يمكننا التأكيد بأن التغييرات ستكون أكيدة في غضون القرن الحادي والعشرين².

مصالح القوى العظمى

الحالة الخاصة بكندا

إن الأمريكيين هم من يثير أكثر المشاكل في شمال كندا. وبالفعل، فهم لا يعترفون بأن مياه ذلك الامتداد المتجمد في الشمال الكندي الكبير هي عبارة عن مياه داخلية كندية، بل يؤكدون بأنها عبارة عن أعالي بحار، ويقولون عن الممر الشهير الرابط بين الشمال والغرب بأنه مضيق دولي (وهو التفسير الذي يقاسمها إياه الاتحاد الأوروبي). وقامت كندا في كتاب أبيض لعام 1987 بتقديم فكرة "إستراتيجية المحيطات الثلاثة" وهي المحيط الهادئ، والمحيط المتجمد الشمالي، والمحيط الأطلسي³.

ولم تتوان الولايات المتحدة عن التحرش في العديد من المرات بكندا في المحيط المتجمد الشمالي: ففي عام 1969 أوغلت في الممر بناقلتها للنفط منهاتن دون ترخيص (في الاتجاه غرب-شرق)، وأدى ذلك بهذه الناقل إلى التعرض لمحاصرتها بالجليد لثمانى مرات، وفي عام 1985 قامت الولايات المتحدة أيضا بسلوك الممر بكاسحتها للجليد البحر القطبي وهو ما أدى بكندا إلى رسم خط قياس سرعان ما اعترضت عليه الولايات المتحدة. وعلى الرغم من الوعود التي أطلقها الوزير الأول الجديد (2006) فإن الوسائل المتاحة لكندا من أجل إحقاق حقوقها أصبحت ضئيلة: ولقد كشف الجامعي من مقاطعة الكيبك، فريدرك لا سير، "أن كندا كانت تقوم في الثمانينيات بتنظيم ما لا يقل عن 26 دورية (جوية) سيادية، في المعدل، كل سنة، أما في عام 2000 فلم تقم بتنظيم إلا 4 دوريات على نطاق كامل الإقليم الشمالي"⁴. ولقد أصبح عدد كاسحات الجليد قليلا وأضحت غير فعالة وقليلة الحضور، وزيادة على ذلك فهي لا يمكن أن تشتغل في فصل الشتاء. وفي الثمانينيات، فكرت كندا فعلا في شراء أكثر من عشر غواصات نووية هجومية.

وبطبيعة الحال، فإنه ينبغي التذكير بأن الولايات المتحدة لم توقع أبدا على اتفاقية مونتيجو باي (1982) المتعلقة بقانون البحار. وبالمختصر، فإن الأمر صار بمثابة مواجهة قضائية، حيث يتفق الطرفان على عدم الاتفاق؛ ولكن إلى متى؟ وقد يكون الموضوع على الأصح عبارة عن عقد شرف (عقد الجنتلمان)، وذلك لو فرضنا أننا على قناعة بأن ثمة اتفاق حقيقي وأن أمريكا هي جنتلمان فعلا.

إن هذا الممر، من الشمال في اتجاه الغرب، لا يفتح إلا لبضعة أسابيع في فصل الصيف (من نهاية يوليو/تموز إلى نهاية سبتمبر/أيلول من الشرق في اتجاه الغرب) وحتى لو استمر ذوبان الجليد الساحلي (حيث تقلص سمكه بأكثر من 40% منذ عام 1958) فإننا لا يمكن أن نتصور أمام مستقبل البشرية معبرا مائيا مفتوحا طوال السنة. وهكذا فإن العبور الصيفي من شأنه أن يسمح بتقليص معتبر للمسافة: إذ أن المسافة بين لندن وطوكيو توفر حوالي 7.600 كيلومتر، مقارنة بمضيق كندا المعروف عنه التعتيل (يعمل بنظام التهويس وهو بطيء ومكتظ حتى وإن كان من المزمع توسيعه عما قريب). وأما في الشمال الغربي، فإن بحر بوفور يزخر بحقول البترول الهائلة.

الحالة الخاصة بالولايات المتحدة

لقد ظل الشمال الفسيح يمثل دوما منطقة أساسية بالنسبة للولايات المتحدة، وذلك حتى في زمن الحرب. وكانت كندا تمثل بالنسبة لها في العلاقات بين الشرق والغرب، حدودا طبيعية، ولا سيما قبل ظهور الصواريخ العابرة للقارات. كما ما زال العالم يذكر قلق القادة الأمريكيين أثناء إطلاق صاروخ سبوتنيك السوفييتي في عام 1957: وبدل القمر الاصطناعي كان من السهولة بمكان أن توضع على الصاروخ رأسا نووية، على المدى القريب، وهو ما سارع السوفييت إلى تنفيذه بفضل مجموعة الصواريخ أرض-أرض التي كانوا يمتلكونها. وكان وقتذاك من شأن عشرين دقيقة حاسمة لا ترحم (حيث يكون الصاروخ بعد إطلاقه "غير قابل للإرجاع") أن تكون كافية لضرب الحواضر الأمريكية الكبرى، عبر القطب الشمالي. ولم يصبح أمام قاذفات القنابل الروسية الثقيلة التي ترجع إلى الخمسينيات والتي كان يمكن تحطيمها في أحسن الأحوال، إلا اجتياز جليد كندا. وكان في مقدور شبكة الإنذار المتطورة نادجي أن تطلق الإنذار، وهكذا كانت كندا تمثل فعلا ستارا إستراتيجيا، وكانت عبارة عن "عتبة" جيوسياسية. وزيادة على ذلك، كان في إمكان الغواصات النووية الإستراتيجية الأمريكية أن تأوي إلى أعماق المجلدات للاحتباء.

إن ألاسكا التي باعها الروس إلى الولايات المتحدة الفتية في عام 1867 (ينبغي ألا ننسى أن روسيا آنذاك كانت لها أهداف تريد بلوغها على الساحل الغربي الأمريكي) غنية بالبترول، وإن كان احتياطها منه لا يمثل إلا 22% من مجموع إنتاج البلد. ويفضل الأمريكيون أن يحافظوا على احتياطات البترول والغاز في ألاسكا لعدة أسباب اضطرارية من ضمنها المسافة البعيدة والأعماق التي يوجد فيها البترول وكلفة استغلاله الباهظة ولكون الاحتياطات متواضعة إلى حد ما، كما إن الكونغرس الأمريكي يعترض على كل العمليات الجديدة في مجال التنقيب، ولقد قامت شركة بريتش بترولיום في عام 2006 بوقف عمليات الاستغلال هناك بسبب التسربات. كما شهدت منطقة ألاسكا تسربا مدمرا للبترول على السواحل (إيكسون فالديس، 1989) تسبب في تلويث 1.700 كيلومتر من الشريط الساحلي.

وفي الأخير، تجدر الإشارة إلى أن أرخبيل الألوسيين، وهو مجموعة تضم 150 جزيرة صغيرة مأهولة بعدد قليل من السكان (12.000 نسمة) وتسد منافذ بحر بيرينغ، يمدد حدود ألاسكا إلى تخوم آسيا من الشمال الشرقي، ويقترّب من شبه جزيرة كامشاتكا الروسية ويتجه صوب

اليابان (وكانت جزيرتان منه قد احتلت من اليابانيين لفترة وجيزة في عام 1942-1943). (كما كان الروس قد باعوا أرخبيل الألوسيين إلى الولايات المتحدة في عام 1867).

الحالة الخاصة بالدانمرك

لقد قامت الولايات المتحدة بتسيير جزيرة غروينلندا إبان الحرب العالمية الثانية (بسبب التسهيلات البحرية والقواعد الجوية، وما تزال متواجدة في الوقت الحاضر بمنطقة ثولي). وللأمريكيين مصلحة كبرى في الحفاظ على صلة صلبة بهذا الإقليم نظرا إلى الدور الأساسي لهذه الامتدادات في تنفيذ برنامجها المتعلق بالدرع المضاد للصواريخ "الدفاع الصاروخي" وذلك بناء على اتفاق متفاوض عليه مع الدانمرك⁵.

وتشهد غروينلندا منذ الحرب العالمية الثانية، على غرار جزر فيروي، تنامي تيار استقلالي قوي. ولقد ظلت هذه الجزيرة إلى غاية صدور الدستور الدانمركي في عام 1953 عبارة عن مستعمرة ثم أصبحت مقاطعة إلى غاية 1979 وأرسلت نائبين عنها لتمثيلها في البرلمان الدانمركي (وهما المقعدان اللذان يمكن أن يؤثرتا حتى الوقت الحاضر في الحياة السياسية في الدانمرك). وظل هذا الإقليم تحت وصاية وزارة خاصة في غروينلندا برئاسة حاكم. وتوسع نطاق الاستقلال الذاتي بسرعة ولكنه لم يمنح إلا ابتداء من عام 1979 (بعد سنتين من تأسيس مؤتمر اتحاد قطبي يضم شعوب ألاسكا وغروينلندا وكندا وسيبيريا) مع تشكيل حكومة وإنشاء برلمان، وذلك زيادة على الاعتراف بلغتها وعلمها. أما المسائل المتعلقة بالأمن والعملية والعدالة والقانون المدني والعائلي واستغلال باطن الأرض فما تزال، من ضمن مسائل أخرى أيضا، خاضعة إلى سلطة الدانمرك. ويقوم محافظ مملكة الدانمرك بالمدينة الرئيسية في الجزيرة، وهي نيوك. وفي عام 1984، أعلنت غروينلندا نفسها "منطقة منزوعة الذرة" برفقة إيسلندا وجزر فيروي الدانمركية. وبعدها أبدت غروينلندا رغبتها في الانسحاب من المجموعة الاقتصادية الأوروبية (التي كانت الدانمرك قد انضمت إليها في عام 1973) تحقق لها هذا الانسحاب فعلا في عام 1985. وبذلك قامت المجموعة الاقتصادية الأوروبية بإعفاء غروينلندا من الحقوق الجمركية المستحقة على المنتجات الصيدية وكان على غروينلندا بعدئذ أن تساهم بثمن باهظ على حقوق الصيد المستحقة على المجموعة الأوروبية⁶.

إن الجليد يمتد على مساحة 1,8 مليون كيلومتر مربع⁷ غير أن السكان (وعددهم 57.000 والمتمدنون بقوة) يقيم الثلثان منهم تقريبا على الساحل الغربي، في المياه الخالية من الجليد. ولا يوجد من الأنشطة إلا القليل خارج الصيد البحري (صيد سمك الفقمه، الخدمات والإدارة على الخصوص) والقليل من المعادن المستخرجة، والقليل من الدانمركيين القادمين من القارة، ولقد تفتت البطالة وإدمان شرب الخمر. إذن، صار الاقتصاد عبارة عن اقتصاد صوري يعتمد إلى حد كبير على الإعانات القادمة من الدانمرك.

الحالة الخاصة بروسيا

يجب التذكير بأهمية العبور من الشمال إلى الشرق، في العهدين السوفييتي ثم الروسي، على الصعيد الجيو-سياسي. ومن شأن ذلك أن يسمح بالربط بين جزأين من روسيا لم يقترنا أبدا،

إلا من خلال الغزو والاحتلال (في القرن السادس عشر وخصوصا في القرن السابع عشر): وهما روسيا الواقعة في أوروبا، التي لا يعلم أحد بالحدود التي تقف عندها، وحتى الروس أنفسهم (إذ أن جبال الأورال ليست إلا خط تقسيم من ضمن عدة خطوط) وروسيا الواقعة في شرق آسيا.

إن شبه الجزيرة الروسية هذه الواقعة على المحيط الهادئ وغير المأهولة إلا بعدد قليل من السكان في الوقت الحاضر لم ترتبط أبدا بالعاصمة موسكو: إذ أن سيبيريا هي عبارة عن صحراء طبيعية مترامية الأطراف وغنية جدا بالموارد الباطنية (غاز وبتترول ومعادن) وظلت منذ نهاية القرن التاسع عشر محل أطماع الصين. وما زالت الطريق تعرف دوما وعورة المسلك (حيث يوجد فارق زمني قدره إحدى عشرة ساعة يفصل بين أقصى غرب البلاد وأقصى شرقها). وأما القطار العابر لسيبيريا فهو رهن المصادفات وبطيء ومعقد (ولم يتم أبدا ربطه بخط ثان مواز له كما ينبغي على الرغم من القوة الصناعية التي بلغها الاتحاد السوفييتي). ولا توجد إلا الطائرة التي يمكن أن تجوب هذا الفضاء الذي يكاد يكون غير قابل للقياس ويجعل من روسيا الأزلية بلدا برأسين في الصميم، غير أن قطع هذه المسافات جوا لا يتم في الأساس إلا لصالح أقلية محظوظة.

وتبقى إذن الباخرة، والمخرج الوحيد القابل للإبحار طوال السنة يكون عبر شبه جزيرة كولا المتاخمة لحدود النرويج (ورغم ذلك كان ينبغي للغواصات السوفييتية فيما مضى مخادعة وأنظمة التنصت بين ("GIUK" الحاجز الغربي بين غروينلندا وإيسلندا وبريطانيا العظمى إذ أن في جهة المحيط الهادئ يشل الجليد مدينة "SOSUS" غروينلندا وإيسلندا وجزر فيروي بتروبافلوفسك في الشتاء، وأما مدينة فلاديفوستك فتبقى رهينة المضايق اليابانية. ولهذا السبب يفهم الأمر الذي جعل الروس يشعرون بالحصار على الصعيد البحري. وفي عام 1987، حاول الكاتب العام غورباتشيف فك الخناق من خلال برنامج طموح في المحيط المتجمد الشمالي تضمنه خطابه الشهير في مدينة مورمانسك.

ويتميز العبور من الشمال إلى الشرق إذن بميزة المساحة من نهر إلى نهر آخر في الجزء الشرقي من روسيا (إذ أن الأنهار تجري من الجنوب في اتجاه الشمال، على العكس من الأنهار في الجزء الغربي). ولقد أدى الأمر بالرئيس بوتين إلى حد التهكم، مبديا ابتهاجه بظاهرة الاحتباس الحراري وارتفاع الحرارة على المدى القريب ببعض الدرجات لفائدة بلده. وبذلك أصبح المرور من الشمال إلى الشرق سالكا من يوليو/تموز إلى أكتوبر/تشرين الأول بل وإلى غاية نوفمبر/تشرين الثاني. ولكن مع ذلك، ينبغي التحفظ والتعقل: إذ أن سلوك طريق في شمال روسيا يتطلب كاسحات الجليد العاملة بالطاقة النووية. وهل يعتبر ذلك من الأولويات المالية لروسيا؟

المسألة الجوهرية في بحر بارنتس

أصبح بحر بارنتس يمثل منطقة مهمة في شمال الكرة الأرضية. وغالبا ما كانت مدينة ترومسو، في الثلث الشمالي من القارة النرويجية، القاعدة الخلفية للرحلات الاستكشافية في القطب الشمالي (وفيها يوجد معهد النرويج القطبي). وأثناء الحرب، اكتسبت المنطقة بعدا إستراتيجيا: طريق الحديد، معركة الماء الثقيل، دور القوافل العابرة للمحيط الأطلسي والمتجهة إلى مورمانسك (ميناء روسي يقع في شبه جزيرة كولا)، دوريات الغواصات الألمانية، إقامة تجهيزات الأرصاد الجوية. وبعد ذلك، أصبحت تشكل مع تركيا نقطة التماس والاتصال الوحيدة بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والحلف الأطلسي. ولقد كانت النرويج عضوا في منظمة حلف الشمال الأطلسي بشروط؛ وهي عدم وجود قوات عسكرية على أراضيها وعدم العبور فوق أراضيها أو استقبال أسلحة نووية، وذلك لكون وجود حدود للمنطقة مع كل من النرويج وروسيا وأما فنلندا والسويد فلا تطلان على بحر بارنتس. ومنذ ذلك الوقت صارت هذه المنطقة الغنية بالثروات والواعدة تحتل الصدارة على الساحة الدولية.

أولا، توجد الموارد الصيدية بوفرة عالية على السفوح النرويجية بسبب تيار الخليج الدافئ الذي يهب على الساحل بكامله ويزيد اعتداله بسبب ذوبان الجليد. ويقوم نصف عدد الصيادين النرويجيين البالغ 15.600 صياد (في عام 2004) في الثلث الشمالي من البلاد (60% من سفن الصيد) الذي لا يقطنه هو نفسه إلا عدد قليل من السكان. ولذلك، فإن السلطات لا تخفي قلقها من هذا الموضوع، لإدراكها مخاطر الهجرة إليها (إذ أن 8.000 روسي يعيشون في النرويج) القادمة من شبه جزيرة كولا الفقيرة والمهملة من قبل روسيا. ويعتبر القلق حقيقيا، لا سيما وأن تربية المائيات على اليابسة، التي تجعل السكان يستقرون، تمثل نصف الأنشطة المرتبطة بالبحر. ولقد أبرمت اتفاقات ثنائية منذ منتصف السبعينيات، على منطقة يقع فيها خفر السواحل باستمرار (الذين يحرسون مساحة تزيد على مساحة النرويج القارية بستة أضعاف) في نزاعات مع الصيادين الإسبان الذين يخرقون قوانين الصيد البحري⁸. وأما "المنطقة الرمادية" بين النرويج وروسيا، وهي تمثل جزءا من قطاع أوسع تمارس عليه مطالب متعارضة حول الحدود بين البلدين، فلقد كانت لحسن الحظ موضوع اتفاق مؤقت في مجال الصيد.

ومع ذلك، فإن الاكتشافات التي تمت منذ الستينيات في مجال البترول (بدء الاستغلال في الثمانينيات) هي التي غيرت المعطيات، قبل أن يفرض الغاز مؤخرا كمورد ثراء آخر إلى درجة صار فيها النرويج يحتل مرتبة البلد الثالث المصدر للبترول والغاز الطبيعي (البلد الثامن والسابع، على الترتيب، في مجال الإنتاج). وعلى سبيل البيان، تضمن النرويج 25% من حاجات ألمانيا إلى الغاز ونسبة 30% من حاجات فرنسا⁹. وسوف يسمح حقل الغاز الهائل "سنوهفيت" مع بداية 2008 بعمليات التصدير بواسطة سفن نقل الميثان الضخمة¹⁰. وفيما يخص روسيا، فإن حقل "شتوكمان" أصبح أكبر حقل للغاز في العالم.

ويشعر النرويجيون أيضا بالقلق من إمكانية اتفاق بين الأمريكيين والروس بما يخالف المصالح النرويجية (إرسال النفايات النووية الأمريكية إلى روسيا على سبيل المثال، مقابل مساعدة أمريكية في عملية إزالة التلوث من جزيرة كولا، التي صارت تدعى "سلة النفايات النووية" و"مزبلة" حقيقية للغواصات النووية السوفياتية-سابقا بعد شغار تركتها وعدم وجود وارث

لها¹¹. وغير بعيد عن ذلك، فقد كانت شبه جزيرة زمبلا الجديدة، الفاصلة بين بحر بارنتس وبحر كارا، تستخدم لوقت طويل ميدانا لإطلاق الصواريخ النووية؛ ويوجد بها الكثير من السوائل المتدفقة والنفايات النووية الصلبة، زيادة على المفاعلات النووية لكاسحات الجليد، والسفن البحرية والغواصات التي تم إغراقها دون اتخاذ أي احتياطات.

إن ما يثير القلق أكثر على المدى المنظور يتمثل في نقل البترول بطبيعة الحال، وذلك اعتبارا للعوامل الثقيلة الأثر. أجل، إن البقع الزيتية الطافية على البحر صارت بمثابة الخطر المتوقع حدوثه في أي وقت. كما إن الظلمة تعم المنطقة وقتا طويلا من السنة، والطقس فيها قاس في الغالب، والظروف المناخية شديدة للغاية، والمسافات شاسعة جدا، ووسائل قطر السفن محدودة ومن الصعب توزيعها، والسواحل مسننة بشكل خاص جدا، والمياه الباردة لا تمتص مواد التلوث بالصورة التي تمتصها بها المياه الدافئة. وما زال غرق السفينة "بريستيج" (2002) في عرض السواحل الإسبانية ماثلا في أذهان الخبراء والمسؤولين النرويجيين الذين ما فتئوا يطالبون منذ ذلك الوقت بإبعاد "خط الملاحة" بخمسين كيلومترا عن السواحل¹². وزيادة على ذلك، فإن ناقلات البترول القادمة من مورمانسك والمبصرة على طول السواحل النرويجية سيزيد عددها أكثر فأكثر، وخصوصا وبالأحرى لو أقيم أنبوب نفط روسي يربط شبه جزيرة كولا.

الحالة الاستثنائية الخاصة بأرخبيل سفالبارد

يعرف أرخبيل سفالبارد في فرنسا باسم سيبيتسبرغ ويمثل واحدة من الجزر الأربعة الرئيسية (أكثر من 150 جزيرة صغيرة) ويقع في منتصف الطريق بين الرأس الشمالي (شمال النرويج) والقطب الشمالي (بين الدرجة 77° والدرجة 80° شمالا، وجزيرة روس المحاذية للدرجة 81°، والجزر الروسية فرانسوا-جوزيف الواقعة على مسافة أقرب بقليل). ويغطي الجليد أرخبيل سفالبارد بنسبة 60% وهو يمثل ضعفي مساحة بلجيكا، ويقطن به عدد قليل جدا من السكان (1.900 نسمة، منهم 1.700 في لونغييربين، المدينة المنجمية القديمة) وتبلغ أعلى قمة فيه علو 1.717 مترا، وكان قد اكتشف هذا الأرخبيل الهولندي بارنتس في عام 1596 (وكان به سكان من الفايكينغ منذ القرن الثاني عشر؟). ولقد ظل قنص الحيتان والصيد البحري وصيد الطرائد الكبيرة، واستغلال الفحم أيضا، والرحلات الاستكشافية نحو القطب تجتذب دوما العديد من المغامرين. ولقد سمحت بالونات المنطاد (السويدي أندري الذي انطلق من الشاطئ الكثير الحصى والمتجمد في فيرغوهام قبل أن يتحطم في عرض البحر)¹³ والمناطيد المسيرة، حيث توجد محطة زيبلين القديمة بالقاعدة العلمية في نبي-أليسوند وما زال يشغل بها العشرات من العلماء من مختلف الجنسيات، ومنهم الكوريون الجنوبيون والصينيون، والطائرات والزلاجات الجليدية، إلخ... بالسعي الدؤوب إلى بلوغ القطب، والذي غالبا ما كان مأساويا. وتوجد في أقصى الشمال محطة كينفيكا التي ما زالت على حالها، وهي تمثل مكانا خارجا من العدم يتربع على موقع بديع وموحش وكأنما ظهر منذ بدء الكون، ولقد استخدمت هذه المحطة من طرف السويديين من أجل قضاء البيات الشتوي بها في عام 1957-1958 الذي صادف السنة الجيوفيزيائية الدولية. وأقام بها باحثون آخرون مرة أخرى في الستينيات (ثم في شتاء عام 2005-2006 (مراقبة دببة القطب

يظل أرخبيل سفالبارد حالة استثنائية على الصعيد القانوني، فهو تابع للسيادة النرويجية منذ معاهدة باريس في عام 1920¹⁴ (9 أطراف منها فرنسا، وبلغ العدد 39 طرفاً في الوقت الحاضر، يتمتع بحقوق متساوية، وما تزال المعاهدة "مفتوحة"). كما يخضع الأرخبيل لقيود عسكرية (لا توجد به قواعد عسكرية ولا معسكرات)¹⁵ ولا يعرف فيه التمييز بين الجنسيات، ويمنح فيه السوفييت-الروس بعض الامتيازات (يمكن فيه زيارة منشآت بارنتسبورغ شبه الخالية، ومنها محطة الأرصاد الجوية، ويقيم به 500 شخص منهم 23 طفلاً) وفيه تتم المحافظة الصارمة على البيئة. ويتبع أرخبيل سفالبارد الوصاية الإدارية لوزارة العدل ويرأسه حاكم يتمتع بسلطات، كما يستقبل هذا الأرخبيل دورياً أفواجا تتألف من مئات الطلبة في مركزه الجامعي النشط. وترى النرويج أن من مصلحتها توطين رعاياها فيه بصورة معتبرة.

مستقبل غامض

إن ارتفاع درجة حرارة الأرض، والدور البارز للموارد الطبيعية (البترول والغاز والمعادن) ذات الاحتياطات الهائلة (وفي الواقع، يعترف المتخصصون أنهم يجهلون إلى حد كبير الجيولوجيا الخاصة بالمنطقة)، والأخطار التي تتهدد الصيد البحري، والمخاطر المتجددة بوقوع التسربات النفطية وتشكيل البقع السوداء، والمنازعات بخصوص رسم الحدود البحرية أو النظام الأساسي للبحر والمياه، وظهور الحركات الاستقلالية، وخصوصيات بحر بارنتس وأرخبيل سفالبارد النرويجي، ومعالجة النفايات وتسيير المنشآت النووية للاتحاد السوفييتي-سابقاً، وأهمية المنطقة في مجال إقامة الدرع الأمريكي المضاد للصواريخ... تمثل جميعها أسباباً كثيرة وقوية تهيب القطب الشمالي الكبير لاحتلال المكانة اللائقة به. ولقد أضحت المنطقة في الوقت الراهن بامتياز الفضاء الجيو-سياسي والجيو-إستراتيجي والجيو-اقتصادي. وفي أحسن الأحوال؛ سيكون فيه احترام القانون والتعاون الدولي، وفي أسوأ الأحوال؛ ستكون الكوارث الطبيعية أو التقنية واحتدام المنافسات والخصومات.

وفي جميع الأحوال، فإن المبادرات كثيرة ولا تكاد تحصى؛ ومنها برنامج بارنتس 2020 في مجال التعاون الجهوي الموجه للتنمية والبحث وترقية الأنشطة الاقتصادية، زيادة على حماية البيئة. كما ترغب النرويج في اجتذاب روسيا نحو مهارتها ونجاحاتها في ميدان الابتكار للقيام بتطوير المشاركة في المعارف، اعتباراً للتقدم الملحوظ الذي أحرزته في بعض المجالات. وسوف يتم تجميد مجموعة واسعة من عينات النباتات المنتجة للغذاء وحفظها في جوف الأرض بمنطقة سبيتسبرغ في عام 2007، "في حالة ما إذا...". كما سيقوم المستكشف الفرنسي جان-لويس إيتيان في عام 2007 بقياس سُمك الساحل الجليدي، من على منطاد مسير، المنطاد القطبي. وستقوم سفينة الصيد تارا، التي تم احتجازها طوعاً في وسط الجليد، بدراسة التغيرات المناخية من الآن إلى غاية 2008. وزيادة على ذلك، فإن من شأن السنة القطبية الدولية 2007-2008 أن تثير الفضول وتجند أصحاب الإرادة.

أما في الوقت الحاضر، فلا يوجد أي شيء يوحي بأن مصير القطب الشمالي الكبير قد حسم أمره.

تييري غارسان

منتج منتدب براديو فرنسا، ومدير الحلقة الدراسية HEC أستاذ محاضر بمدرسة التجارة بالمعهد المتعدد الأسلحة في وزارة الدفاع. وهو مؤلف كتاب المسائل الدولية الكبرى، دار نشر (Economica)2001، إيكونوميكا.

ترجمة: عياش سلمان

معروفة هي العداوة التقليدية الشديدة للصيادين النرويجيين للانضمام إلى المجموعة الأوروبية: حيث تم التصويت برفض الاستفتاء في 1972 وفي 1994، في الوقت الذي كان الانضمام من تحصيل الحاصل.

في مجال إشكالية القطب الشمالي (التعريف والخصائص...) تعتبر أشغال الأميرال معهد - *Economica*، روني بيسنو بمثابة المرجع: جيو-إستراتيجية القطب الإستراتيجية المقارنة، 1992.

يجدر التذكير بأن منطقة الأرض الجديدة، التي كانت عبارة عن دومينيون بريطاني منذ 1917، لم يتم إلحاقها بكندا إلا بصعوبة في عام 1949.

الأثر الجيو-سياسي للتغيرات المناخية. التجربة الكندية" مجلة الدبلوماسية، العدد 9، "يونيو-يوليو 2004. وكذا: "المرور من الشمال إلى الغرب: الطريق البحري المقبل" العلاقات الدولية والإستراتيجية، العدد 42، 2001.

للتبسيط، يعتمد النظام الأمريكي المضاد للصواريخ رسمياً: على الولايات المتحدة، في الوقت الحاضر أو أجلا (داكوتا الشمالية وألاسكا وماساتشوستس وكاليفورنيا وجزر الألوسيين) وعلى الخارج (الدانمرك والمملكة المتحدة وكوريا الجنوبية والنرويج وجزر مارشال).

رفضت جزر فيروبي دوما الانضمام إلى المجموعة الأوروبية.

يؤكد الأخصائيون أن درجة الحرارة ارتفعت في المعدل بدرجة ونصف درجة مئوية (1,5°) في غضون السنوات الثلاثين الأخيرة.

في سنة 2005، تم تفتيش 2.378 سفينة (منها 984 سفينة نرويجية و713 سفينة روسية). وفي منطقة سفالبارد التي يرفض فيها الروس الرقابة النرويجية ولا يوقعون على وثائق التفتيش: تم تفتيش 426 سفينة (منها 220 سفينة روسية و105 سفن نرويجية). ويستعمل خفر السواحل الذين يؤكدون ارتفاع وتيرة النقل البحري (نقل البترول، رحلات النزهة، الصيد غير المشروع...) وعلى المهام المتنوعة أكثر فأكثر، 21 سفينة وست مروحيات وطائرتين.

يوناغ غاهر ستور، وزير الشؤون الخارجية: "الشمال العلوي، قمة العالم وقمة واشنطن 15 يونيو 2006. اقرأ أيضاً للكاتب نفسه: بحر الفرص CSIS الروزنامة الموالية. سياسة الإصغاء من أجل القطب الشمالي"، جامعة ترومسو، 10 نوفمبر العدد 9، شتاء *Nordiques* 2005؛ وكذا: "النرويج فرنسا والشمال الكبير" مجلة 2006-2005.

الغاز (الغاز الطبيعي المميع) يتم تمييعه في 162 درجة مئوية تحت الصفر وهو ما يقلص حجمه بستمائة مرة. وكانت في عام 2005 توجد 150 ناقلة للغاز في العالم

(ذات هندسية كروية أو- مؤخرا- ذات غلاف من الصفائح) تستخدم في 25 بلدا منها 12 بلدا مصدرا. وتعتبر كوريا الجنوبية أول بلد مصنع للناقلات ويليها اليابان في الرتبة الثانية. وسوف تصنع ورشات الأطلسي مع نهاية 2006 - نهاية 2007 ثلاثة ناقلات للغاز المميع (الميثان) بغلاف من الصفائح ذات طاقة هائلة. وتمثل الصفقات المتصلة بالغاز الطبيعي المميع نسبة 22 % من التجارة العالمية في الغاز الطبيعي (المصدر: غاز فرنسا المتواجدة في شمال أوروبا وإفريقيا والشرق الأوسط). وتوجد بفرنسا محطتان مركزيتان للغاز. ويجدر التذكير بالنقاش الحاد في منطقة الكيبك، وهي إقليم متاخم للقطب الشمالي، حول ضرورة إقامة موانئ خاصة بناقلات الميثان قدمت النرويج مساعدة مالية لتفكيك الغواصات النووية التابعة للاتحاد السوفييتي- سابقا. وما تزال فاجعة غرق الغواصة النووية الروسية "كورسك" في عام 2000 ماثلة في كل الأذهان.

أكد الوزير الدانمركي للصيد البحري، سفين لودفيغسن، في مارس 2004 أن في كل يوم ترسو ناقلتان اثنتان من الحجم الهائل على الأقل في ميناء ستور/مونغستاد (جنوب-غرب النرويج) ويشحنان بالبتروول. وهي من ناقلات البتروول التي تبلغ سعتها 400,000 طن؛ وهو ما يماثل أكثر من خمسة أضعاف الناقلات بريستييج.

ما تزال بقايا العنبر ماثلة للعيان. شارك كاتب هذا المقال في يونيو 2006، بناء على دعوة من السلطات النرويجية، في رحلة علمية جابت مجموع إقليم سفالبارد على متن "السفينة النرويجية للاستكشاف القطبي"، "لوانس".

سيادة بالاسم في عام 1920 وفعلية في عام 1925. وانضم الاتحاد السوفييتي إلى المعاهدة في عام 1935.

لم يمنع نزع التسليح هذا ألمانيا من احتلال سفالبارد (1942-1943) للوقوف في وجه قوافل الإمداد الأمريكية المتوجهة إلى مورمانسك وإقامة منشآت الأرصاد الجوية. وتكفلت المقنبلات "تريبترز" و"شامهوست" بقصف المنشآت والسكان.

Revue des revues, sélection de décembre 2007

Thierry Garcin : « Le Grand Nord, nouvel espace géopolitique »
article publié initialement dans *Défense Nationale*, novembre 2006.

Traducteurs :

Anglais : *Défense Nationale*

Arabe : Selmane Ayache

Chinois : Yan Suwei

Espagnol : Roberto Rueda Monreal

Russe : Martha Kouznetsova

Droits :

© *Défense Nationale* pour la version française

© Selmane Ayache /Bureau du Livre de l'Ambassade de France en Algérie pour la version arabe

© Yan Suwei /Centre culturel français de Pékin pour la version chinoise

© Roberto Rueda Monreal /Institut français d'Amérique latine pour la version espagnole

© Martha Kouznetsova /Centre culturel français de Moscou pour la version russe